مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (6)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (6) 2017

الملامح السيميائية في النص الأوغسطيني

الدكتور منذر شباني *
الدكتورة عفراء اسماعيل **
لينا مطيع حميدوش ***

(تاريخ الإيداع 31 / 8 / 2017. قبل للنشر في 18 / 12 / 2017)

□ ملخّص □

يتناول هذا البحث الملامح السيميائية في النص الأوغسطيني محاولاً الكشف عن طبيعتها ودلالتها. فيعرض بداية موضوع السيمياء ومفهومه وعلاقته بالواقع السيمواجتماعي والسيموثقافي لدى السيميائين المعاصرين. ثم يناقش مفهوم العلامة وعلاقتها بالتأويل في النص الأوغسطيني مظهراً ما يتميز به هذا الأخير من لغة رمزية، وهذا ما دفعنا إلى الخوض في عمق هذا النص محاولين فتح آفاق أوسع عن طريق البحث في عمق الوجود من أجل استخراج المعاني الخفية للرموز التي يتضمنها الوجود الخارجي للأشياء. كما يناقش خصوصية العلامة عند أوغسطين والتي لعبت فيها النظرة اللاهوتية للكون الدور الأساس، وكذلك يسعى لتحديد نقاط الالتقاء والاختلاف مع بعض السيميائين المعاصرين، ليصل إلى الحديث عن أنواع العلامة عند أوغسطين، محاولاً في النهاية تقديم بعض النتائج في تحديد الملامح السيميائية في النص الأوغسطيني.

الكلمات المفتاحية: السيمياء ـ الدال ـ المدلول ـ العلامة ـ اللغة ـ التأويل .

* أستاذ مساعد، قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.
** مدرسة ـ قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.
*** طالبة دكتوراه ـ قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (39) العدد (6)2017
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (39) No. (6) 2017

The Semiotic Features in the Augustian's text

Dr. Monzer Shbani*
Dr. Afraa Ismael**
Lina Hmaidoush***

(Received 31 / 8 / 2017. Accepted 18 / 12 / 2017)

□ ABSTRACT □

This research handles the Semiotic Features in the Augustian's text an attempt to discover its nature and implication. It tackies the Semiotic theme, its concepts and relation to the Sociological Cultural realities of modern semitians. then it discusses the concept of sign and its relation to interpretation in this text showing its distinct features, Symbolic language which makes us delve deep into this text trying to open broaden horiozons via searching deep into existence to decipher hidden meanings of symbos in the external existence of things. It also deals with the speciality of sign to Augustein in which the theological perspective played the major role. It also aims at specifying the differences and similarities with some modern semitics to talk eventually about kinds of sign trying to end up with some results that help us comprehend the Augustian's text.

Key Words: Semiotic, Signifier, similarities, Sing, Language, Interpretation.

*Associate Professor, Department Of Philosophy In The Faculty Of Arts And Humane Science – Tishreen University, Lattakia, Syria .
**Assistant Professor, Department Of Philosophy In The Faculty Of Arts And Humane Science – Tishreen University, Lattakia, Syria.
***Postgraduate Student, Department Of Philosophy In The Faculty Of Arts And Humane Science Tishreen University, Lattakia, Syria.

مقدمة:

يولي أوغسطين اللغة اهتماماً بالغاً، فهي أداة الفكر التي يستخدمها الإنسان للتفسير والتعبير عن الوجود وظواهره وكائناته المختلفة، وذلك من أجل إظهار المعاني المضمرة فيه. وهي كذلك أداة لتحقيق مبدأ الاتصال بين ماهو داخلي وماهو خارجي. ولذلك كان من الطبيعي أن تكون القضايا ذات الطابع اللغوي والدلالي، سيّما مفهوم العلامة، من بين المسائل التي أولاها أوغسطين الاهتمام الكبير. وإذا كان استخدام أوغسطين للمفهوم يبدو سابقاً عن المصطلح الحديث بنحو ما يزيد عن خمسة عشر قرناً فإن إحدى أهم المسوغات التي دفعت باتجاه البحث في الملامح السيميائية هذا داخل النص الأوغسطيني هو أن الأخير اقترب بشكل أو بآخر من نصوص السيميائين المعاصرين بدرجة أو بأخرى، دون إغفال الفارق بينهما من حيث التطور العلمي والمنهجي، محاولين البرهان على أن أوغسطين قد طوَّر نظرية جديدة في العلامات العرفية ضمن تأكيده على إطار الاتصال والتواصل والتوصيل بين الإنسان وعالمه الخارجي عند معالجته لمفهوم العلامة.

أهمية البحث وأهدافه:

أهمية البحث:

تأتي أهمية هذا البحث من الدور الذي لعبه موضوع السيمياء الأوغسطيني، أي مفهوم العلامة في إعادة قراءة النص الأوغسطيني قراءة جديدة من خلال التركيز على الجانب الدلالي واللغوي الذي ربطه أوغسطين بمنهجي التفسير والتأويل الذي يتناسب مع دراسة النصوص الدينية، إضافة إلى أن هذه الدراسة تناقش موضوعاً نادراً ما يطرح على المستوى الأكاديمي.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى إظهار تأثير وانعكاس المعنى الدلالي والعلاماتي في النص الأوغسطيني على واقع الحياة في العصر الوسيط، إضافة إلى الإضاءة على الأثر الذي تركه أوغسطين على الفكر الغربي فيما بعد. وإلى تسليط الضوء على ملامح السيميائية ومفهومها وأنواعها وعلاقتها باللغة عند أوغسطين.

منهجية البحث:

سنتبع في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي الذي يُعتبر من المناهج الحديثة في دراسة اللغة، وكذلك سنستخدم منهج التحليل النصي (التناص) الذي يساعدنا على إظهار تداخل النص الأوغسطيني مع النصوص الأخرى في الفكر الغربي المعاصر.

النتائج والمناقشة:

أولاً: السيميائية وعلم الدلالة المعاصر:

تشكل العلامة الموضوع الرئيس للسيمياء(Semiotic)، والذي يهدف إلى" دراسة العلامات بين الدلالات والمدلولات. الدلالة لا تهتم بالمدلولات ودلالات اللغات ومختلف أشكال التعبير والتواصل. نظراً لأننا حينما نلمس خطاباً سيمولوجياً لا يمكن أن نفعل أي شيء آخر غير أن تدمج فيه الدلالة ولكن العكس غير ممكن. هكذا تكون الدلالة بنت

نفسها كعلم مستقل". [1] وكمحصلة لصيرورة تفاعل الذات مع الوجود كان لابد من فتح باب المقدرة أمام الذات للكشف عن المعاني الدلالية والعلاماتية والتضمينات الخفية للوجود، وتفكيك رموزه الباطنة من أجل الكشف عن الوظيفة التواصلية فيما بينها من جهة وبين الوجود من جهة أخرى. وكما ذهب سعيد بنكراد أنه " وبفضل العلامات استطاع الإنسان أن يتخلص من الإدراك الخام، ومن التجربة الخالصة، كما استطاع أن ينفلت من ربقة "الهنا" و " الآن". فمن دون تجريد لا يمكن الحديث عن مفهوم، ولن يكون هناك، نتيجة لذلك، وجود علامات ".[2] ومن هذه الناحية، استطاعت العلامة أن تعيد تفسير الوجود بظواهره وكائناته وطقوسه، وبهذا الصدد رأى البعض بأنها "حلت محل عالم يتميز بالتنافر والتعدد والتداخل واختصرته في نماذج وبينات عامة هي القانون الضروري الذي من خلاله يُرد المتعدد إلى ضرب من الوحدة"[3]. ومن جهة أخرى استطاعت العلامة أن تكون أداة في" الكشف عن مناطق في النفس البشرية لا ترى بالعين المجردة، فالمرئي منها هو تجلٍّ يكشف عن وجود طاقة انفعالية بلا هوية ولا حدود ولا معنى. فالإحساس سابق في الوجود على التجلي الدلالي، وسابق على أي تمفصل سيميائي، وهو بذلك يوجد خارج حدود الخطاب، الأداة التي من خلالها يمكن تطوير موضوعات تخص أشكال وجوده". [4]وهذا الإحساس لا يمكن أن يصبح مرئياً إلا بواسطة لغة، فلقد ذهب البعض إلى أن هذه اللغة يجب أن تكون في المقام الأول لفظية يأخذ به "الطابع اللفظي شكل الفكر" [5]. بمعنى آخر، لا يمكن للفكر أن يوجد دون كلام، ولهذا السبب فإن اللسانيات كانت جزء من السيمولوجيا، كما أكد عالم اللغة السويسري فرديناند دوسوسير عندما ذهب إلى القول: إنه لا يمكن معرفة العالم إلا ضمن حدود اللسان بمعنى أن "إدراك العالم مبرمج بشكل مسبق داخل اللغة". [6] فاللسان كما يؤكد دوسوسير له جانبان "جانب فردي وجانب اجتماعي، ولا يمكن أن نتصور أحدهما بغير الآخر" [7]، والعلاقة الجدلية بين هذين الجانبين دفعه إلى دراسة حياة العلامات في الحياة الاجتماعية، ولذا فإن " العلامة اللسانية لا تربط بين اسم وشيء، بل تربط بين صورة سمعية وتصور ذهني" [8]، فدو سوسير يضع العلامة في إطارين: الأول مادي "دال" Signifiant، والثاني مثالي وهو"المدلول" Signific مميزاً بين الوجود الذهني للشيء (الدال) وبين مفهومه (المدلول) وما يربط بينهما هو العلامة(اللسان). ومن هنا كان تصنيفه للسان كواقعة اجتماعية إحدى أهم المسوّغات التي دفعته لتحديد العلامة باللسان، التي يعرّفها بأنها:" المدخل الذي يحول الكتلة الفكرية العديمة الشكل (بالمسليف) إلى وحدات مضمونيه قابلة للإدراك والمعاينة، لذلك ليست العلامة غطاء تمنحه المصادفة إلى الفكر، بل هي عضوه الأساسي والضروري".[9]

لا شك أن ما يميز العلامة السوسيرية هو طابع الازدواجية الذي يؤسس له كل من الصورة الصوتية والمفهوم، فهما معاً يشكلان الوحدة النفسية المُعبّر عنها بالعلامة، فالعلامة هي وحدة تجمع هذين الطرفين هما: الدال والمدلول. والجدير بالذكر، إن طبيعة الرابط الذي يجمع بينهما لا يقوم على المشابهة والتناسب وإلا لما تعددت اللغات بل هي "علامة اعتباطية Arbitraire أي علامة لا يمكن تبريرها منطيقاً وعقلياً، إن الأمر يتعلق برابط عرفي إلى

[1] - توسان، برنار. *ماهي السيميولوجيا* . ت: محمد نظيف، ط2، افريقيا الشرق، بيروت، 2000، ص.19.
[2] -بنكراد، سعيد. *السيميائيات : النشأة والموضوع.* مجلة عالم الفكر، العدد 3، المجلد 35، 2007، ص.10.
[3] -المرجع نفسه، ص.10.
[4] - المرجع نفسه، ص.10.
[5] - المرجع نفسه، ص.10.
[6]- بنكراد، سعيد. *السيميائيات : النشأة والموضوع.* مجلة عالم الفكر، (مرجع سبق ذكره)،ص.11.
[7] -دوسوسير، فردينان. *علم اللغة العام.* ت: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة: مالك يوسف المطلبي، دار أفاق عربية، بغداد، 1985، ص.26.
[8] - بنكراد، سعيد. *السيميائيات : النشأة والموضوع.* مجلة عالم الفكر،(مرجع سابق)، ص.14.
[9] -المرجع نفسه، ص.20 .

اختراع أشكال ترميز موضوعي بدأت بتكوين الأفكار وانتهت بظهور اللغة".[1] إذ لا توحي الدوال بمدلولاتها بشكل تلقائي تلقائي وطبيعي بل يتطلب أداة " يخرج من خلالها، ويتخذ هذا المضمون شكلاً ويخرج إلى الوجود، ومن خلالها يتخذ معنى".[2] وهذه وظيفة العلامة. ومن هذا الكلام نرى أن دوسوسير يؤكد على كلية وجدلية العلاقة بين الدال والمدلول، بحيث لا يمكن " فهم وظيفة الأجزاء إلا في علاقتها الاختلافية مع الكل، فالأجزاء داخل النظام ليس لها معنى في حد ذاتها عندما يُنظر إليها معزولة وهذا ما عبَّر عنه بمفهوم القيمة".[3]

فالعلامة السوسيرية تتميز بأنها علامة تجريدية ومفهوم محايد، إذ تلغي الذات والايديولوجيا، وتهتم بإنتاج المعرفة التي توفرها العلامات. بمعنى آخر، الدلالات التي يمكن الكشف عنها داخل هذه العلامات، هي طبقات معنوية وليدة تسنن اجتماعي معين. ومن هنا فإن دوسوسير اهتم بإنتاج العلامات لا بالتعبير عنها، وإنتاج الدلالة " لا يعود إلى ما يثيره الدال داخلها مثلاً من تشابه مع ما يحيل عليه، بل يعود الأمر إلى امتلاك سنن يتم فيه وعبره توليد كل الدلالة الممكنة".[4] ومن هنا نرى إذا كانت العلامة عند دوسوسير قد ارتبطت بالواقع الاجتماعي، فإنها مع بيرس الذي الذي كان معاصراً لدوسوسير اتخذت معناً مختلف، فارتبطت عنده بالمنطق، [*]وذهب إلى أن " العلامة أو(الماثول) هي شيء يعوض بالنسبة إلى شخص ما شيئاً بأية طريقة وبأي صفة، إنه يتوجه إلى شخص لكي يخلق عنده علامة موازية أو علامة أكثر تطوراً، إن هذه العلامة التي يخلقها أطلق عليها مؤولاً للعلامة الأولى، وهذه العلامة تحل محل شيء موضوعها".[5] فالعلامة (الماثول) عند بيرس تعرّفنا على شيء ولا يزيد معرفتنا به، أي أن العلامة تقوم بوظيفة التمثيل لشيء آخر، أي هنا يأخذ نفس وظيفة الدال بالمعنى السوسيري، فتمثيل الشيء يمنحه وصفاً تجريدياً(مفهوماً). وبهذا يختلف بيرس عن دوسوسير من حيث أنّ العلامة عنده اتخذت شكلاً ثلاثياً، دال ومدلول ومؤول، مما يعني أن العلامة عنده تتم عبر التأويل والتدليل، فارتبطت عنده بما أسماه (السيميوز) [**] أو سيرورة التدليل الذي هو في تطوره سلسلة من الإحالات المتتالية التي لا يمكن أن تنتهي نظرياً على الأقل عند نقطة بعينها". [6]وعليه، فإن سيرورة التدليل(حقل السيموز) تستدعي العلامة(الماثول) كأداة للتمثيل، وتستدعي الموضوع كشيء للتمثيل، وتستدعي مؤولاً يقوم بالربط بين العنصرين.

ووفقاً لهذا الكلام، فإن" الثابت في العلامة أنها ماثول، يحيل إلى موضوع غير مؤول هو الآخر، ويمكن أن يصبح ماثولاً يحيل إلى موضوع غير مؤول وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية". [7] ومن هنا ارتبطت فكرة التأويل عند بيرس بفكرة إنتاج الدلالة ذاتها.

ولكن في حين تأثر المفكر البنيوي التوجه رولان بارت بما جاء به دوسوسير، وانطلق من تقسيمه الثنائي للعلامة. وعلى الرغم من اتفاقه مع دوسوسير في تعريفه للدال، إلا أنه اختلف معه في تعريف المدلول، ورأى أنه لا يمكن أن يكون للمدلول معنى مثالي مرتبط بالصورة الذهنية، بل له جانب مادي متعلق بالنفعية للإنسان، فوسع بهذا

---

[1] - المرجع نفسه،ص.22.

[2] -المرجع نفسه، ص.20.

[3] - أحمر، فيصل. *معجم السيميائيات*. ط1، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2010، ص43.

[4] -إيكو، أمبرتو. *سيميائيات الأنساق البصرية.ط1، ت: محمد التهامي العماري، محمد أوداداد، دار الحوار، اللاذقية، 2008، ص11.*

[*] يقول بيرس: " أن المنطق العام هو أسم آخر للسيمياء وهو مذهب شبه ضروري وشكلي للعلامات" (انظر معجم لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ص111)

[5] - بنكراد، سعيد. *السيميائيات : النشأة والموضوع*. مجلة عالم الفكر، (مرجع سابق)، ص35.

[**] السيميوز يشير من جهة إلى القدرة على انتاج دلالة ما استناداً إلى روابط حركة هي ما يشكل جوهر العلامة وشرط وجودها، ويشير من جهة أخرى إلى سيرورة التأويل التي تعد موجودة ضمنيا داخل أي سيرورة لإنتاج الدلالة.

[6] - بنكراد، سعيد. *السيميائيات : النشأة والموضوع*. مجلة عالم الفكر، (مرجع سابق)،ص.38.

[7] - المرجع نفسه، ص.38.

الفهم معنى الأنساق العلاماتية التي تحدث عنها سوسير والتي حصرها بالجانب اللغوي. وكان بارت من أوائل الذين أكدوا أيضاً على الجانب الثقافي والنفعي (عالم الأزياء)، وما تحتوي هذه الأنساق من إشاراتٍ تحمل معانٍ دلالية توفر للذات إمكانية إعادة تفكيك رموزها واستبطان دواخلها، فأكد بهذا على الجانب السيمو ثقافي [*] للعلامات البصرية التي كانت قد بدأت مع بيرس، وأدخل نسق لباس الموضة كوسيلة للتواصل مع ما توصل إليه المجتمع من تطور في ما يمكن أن يسمى التواصل الجماهيري مع الواقع المفروض(تلفزة ـ سينما). إضافة إلى ما حملته التكنولوجيا الحديثة من إتاحة الصورة البصرية للجميع عبر شبكات التواصل الاجتماعي، ومن الملاحظ أن بارت عندما يدرس عالم الأزياء مثلا، فإنه يطبّق عليها المقاربة اللسانية تفكيكاً وتركيباً من خلال استقراء معاني الموضة وعالم الأزياء، وتعيين وحداتها الدالة وقصديتها الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والثقافية. هذا إلى جانب أن بارت لم يفصل العلامة على أسس اللسانيات البنيوية المتمثلة في الأنظمة الثنائية المتمفصلة، ويتجلى ذلك من خلال ثنائية النظام والمركب، وثنائية اللسان والكلام، وثنائية التقرير والإيحاء. وفي تعريفه للعلامة يؤكد بارت على التركيبة الثنائية لهذه الأخيرة، " فالعلامة مكونة من دال ومدلول ويشكل صعيد الدوال صعيد العبارة، ويشكل صعيد المدلولات صعيد المحتوى. وقد أدخل بالمسليف في كل صعيد من الصعيدين فرقاً قد يكون مهّماً في دراسة الدليل الدلائلي (وليس الدليل اللساني فقط)، فكل صعيد يحتوي في الواقع بالنسبة لمبالمسليف على شريحتين هما الشكل والماهية (المحتوى)". [1] مؤكداً بذلك أهمية الثنائية بين الشكل والمادة التي استلهمها من بالمسليف، إلى جانب فكرته بأن العلامة هي الكلمة المفردة، وهنا نقطة الاختلاف الرئيسة عن بول ريكور. هذا الأخير الذي رأى في " العلامة موضوع السيمياء، شيء افتراضي. والشيء الفعلي الحقيقي الوحيد هو الجملة، لأنها الحدث الفعلي في لحظة التكلم...، فالجملة هي وحدة الخطاب الأساسية وغير القابلة للتجزئة إلى مجموعة أجزاء، وإن كانت مكونة من كلمات لكنها لا تؤدي الوظيفة الاشتقاقية لكلماتها المفردة، فالجملة تتكون من علامات وليس علامة ".[2]

في حين انطلق الإيطالي امبرتو إيكو في أبحاثه السيمائية من فرضية مفادها " إن كل أشكال التواصل تستلزم وجود سنن. وإذا كان علماء اللسان قد برهنوا على أن كل كلام يقتضي وجود لسان سابق عليه في الوجود. فيمكن افتراض أن كل إنجاز تواصلي يستلزم" قدرة" تسبقه". [3] ومن هذا الكلام فإن مهمة السيمياء عند إيكو ارتبطت بفعل الذات وقدرتها على التشديد على تفسير متلقي العلاقات لهذه العلامات.

لذلك خالف إيكو في تعريفه للعلامة ما جاء به سابقيه، إذ يعتقد " أن الجميع يتفق على تعريف العلامة ـ بصفة عامة ـ على أنها شيء يقوم مقام شيء آخر، أما الشيء، فهو عبارة ملموسة أي كيان مادي ينتجه الإنسان أو يعترف به على أنه قادر على القيام بوظيفة المعبّر عن شيء آخر، أو صنف من التعبيرات الملموسة الممكنة أو هو نمط منها. يبقى الالتباس بخصوص ذلك الشيء الآخر الذي يحيل عليه أو الذي يقوم مقامه". [4] لذلك أخذ إيكو تعريف عالم اللغة الروسي جاكبسون للعلامة لحل هذا الالتباس والذي رآه موجوداً في تعريفات السيمائيين، حيث عرَّف هذا الأخير العلامة: " على أنها إرجاع، حيث يقول إيكو في هذا الصدد " فقد قررنا أن نستعمل بصفة مؤقتة للإشارة إلى ذلك الشيء الآخر لفظ" إرجاع" لأنه محايد". [5] فميز ايكو بين " معطيات الطبيعة اللاقصدية، وبين ما ينتجه السلوك

[*] - الجانب السيمو ثقافي يبحث عن القصدية والوظيفة داخل الظواهر الثقافية والأثنية البشرية التي يمكن إدراجها ضمن سيمياء التواصل.

[1] -بارت، رولان. *مبادئ في علم الأدلة* . ط2، ت: محمد البكري، دار الحوار، سورية، 1987، ص.66-67.

[2] - ريكور، بول. التأويل ، الخطاب وفائض المعنى، ط2، ت: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص.32.

[3] - إيكو، أمبرتو. *سيميائيات الأنساق البصرية.ط1، (مرجع سبق ذكره)، ص.17.*

[4] - إيكو، أمبرتو. *السيمائية وفلسفة اللغة* . (مرجع سبق ذكره)، ص.116.

[5] - المرجع نفسه، ص.116.

الإنساني بشكل قصدي".[1] هذا إلى جانب تأكيده على أن دراسة الأنساق الدلالية دراسة مادية. فهو يرفض " الرأي القائل بأنّه لا وجود للعلامات إلا على مستوى التواصل اللفظي الذي يهتم به اللسانيّون دون سواه". [2] فأكد على أهمية التواصل البصري السيميائي لأنها تتيح للسيميائيات " باختبار إمكانية استقلالها عن اللسانيات" [3]. وهذا ما كان قد ذهب بارت إليه من قبل. من هذه اللمحة السريعة لطبيعة موضوع السيمياء، نجد أنه قد احتل مكانة مهمة داخل الفكر الفلسفي المعاصر، إلا أن المنطلقات النظرية والتجريدية لهذا العلم اتخذت في كل مرحلة نقطة انطلاق جديدة، فأدى ذلك إلى تفرع مواضيع أخرى للسيمياء.

ثانياً: العلامة والتأويل في النص الأوغسطيني:

ارتبط المعنى الدلالي للوجود عند أوغسطين بالتأويل، فسؤاله ماذا يعني أن نفسر ونؤوّل؟ يحيلنا إلى أن التأويل ارتبط في بداياته بالنص الديني، وموضوعه كان استخراج المعاني الخفية والمضمرة من النص الحرفي للكتب المقدسة، لذلك لا يمكن للتأويل أن يوجد من دون اللغة، التي هي أداة الفكر التي يستخدمها الإنسان للتفسير والتعبير من أجل توليد المعاني المضمرة للنصوص والمفاهيم." ويتجه التأويل إلى مساءلة النص لغوياً؛ أي سؤال النص، وتهدف هذه المساءلة إلى تحرير النص من ذاتية المؤلف، وإمكان قراءات عديدة وممكنة للنص، وإمكان تحقيق فهم مغاير. فالنص في النهاية هو قول يحتمل قولاً آخر مختلفاً" [4]، لذلك كان كشف أوغسطين عن أصل اللغة. وانتقاده للغة في محاورة المعلم من أجل إخضاع اللغة لسلطة النص الروحي الذي كان يعتبره السلطة العليا التي يتوجب على الجميع الخضوع لها. حيث يعرّف أوغسطين اللغة بأنها "ظاهرة مادية، إنها صوت يصدر عن الفم ويطرق الأذن، وهي ظاهرة روحية، إذ إنها معنى مستقل عن صوت الكلمة"[5]. ولم يتوقف عند حدّ تقسيم اللغة إلى شكل ثنائي(مادي وروحي)، بل بل يتجاوز ذلك إلى حدّ اعتبار اللغة عاجزة وقاصرة في إيصالنا إلى الحقيقة، إذ لم نستخدمها للتعبير عن الصور الروحية الموجودة داخلنا. فاللغة في تصوره أداة لاحقة للفكر، ولا تقوم سوى بالكشف عن مكنونه من خلال ألفاظ بعينها. وهذا ما يؤكده لنا لالاند في تعريفه للغة بأنها "وظيفة التعبير اللفظي للفكر، سواء أكان داخلياً أم خارجياً "[6]. من من هنا جاءت محاولة أوغسطين لشرح السيرورة المنتجة للتلفظ الإنساني باعتباره " مدخلاً أساسياً نحو الفهم وإنتاج الدلالات من خلال القول بوجود معرفة محايثة يمتلكها الله ويسَري بها على الإنسان" [7]، فرأى أنّ مهمة اللغة هي إما لنعلم وإما لنتذكر، وبالتالي فإن مهمة الكلمات إذن " إما تذكيرنا وإما تذكير غيرنا وتعليمهم" [8]. فعمل اللغة هو الذي دفع دفع أوغسطين إلى الربط بصفة جلية بين نظرية اللغة ونظرية العلامات على عكس ما ذهبت إليه الرواقية من الفصل بينهما.

فمعرفة الوجود تتطلب بالضرورة معرفة العلامات التي تشكله، فإذا كانت العلامة في تعريفاتها الأكثر بداهة هي تساؤلات حول المعنى" فلا يمكن معرفة أي شيء دون الاستعانة بعلامات اللسان، ذلك أن العالم بكل موجوداته يحضر في الذهن على شكل مضمون لساني" [9] .

---

[1] - إيكو، أمبرتو. *العلامة(تحليل المفهوم وتاريخه)*. ط2، ت: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2010، ص.16.
[2] - إيكو، أمبرتو. *سيميائيات الأنساق البصرية*.ط1، (مرجع سبق ذكره)، ص.22.
[3] - المرجع نفسه، ص.26.
[4] -خليفة، داود. *فلسفة اللغة والتأويل: مقاربة ابستمولوجية* (مقال منشور في جامعة حسيبة بن بوعلي). الجزائر،ص.44.
[5] -حنفي، حسن. *نصوص من الفلسفة المسيحية (أوغسطين، انسلم، الاكويني)*. القاهرة، ص.12.
[6] - معجم لالاند الفلسفي، ص.553.
[7] -معجم السيمائية . موقع سعيد بنكراد، WWW.Saidbangard.net
[8] -حنفي، حسن، *نصوص من الفلسفة المسيحية (أوغسطين، انسلم، الاكويني)*. (مرجع سبق ذكره)، ص.66.
[9] - أحمر، فيصل. *معجم السيميائيات*. ط1، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2010، ص.41.

فأوغسطين يعتبر واحداً من رجال الكنيسة الذين كان لهم تأثير على الساحة الدينية واللاهوتية، والذين أخضعوا كل شيء للكلمة الإلهية، " فأصبحت الطبيعة بأشيائها وكائناتها عند اللاهوتيين وبعض الفلاسفة علامات يحدثنا من خلالها الله عن ملكوت لا نرى منه سوى هذه الصور الرمزية المجسدة في الطبيعة كلها... وكان الهدف واحداً: ليس الإنسان هو من يصوغ اللغة من أجل السيطرة على الأشياء، بل الأشياء (الطبيعة أو الكائن) هي التي تتبدى من خلال اللغة "[1]، فوظيفة اللغة هنا هي تأويل هذه الأشياء، والتأمل فيها لمعرفة الخالق. فكل ما يظهر في هذا هذا الكون هي علامات للخالق.

فمن خلال علاقة اللغة بالتأويل عند أوغسطين والتي أردنا من خلالها التمهيد للأسس التي تصور بها أوغسطين مفهوم العلامة (انطلاقاً من طبيعة العصر الذي عاش فيه، وطبيعة المنهج الذي استخدمه)، نرى أن أوغسطين انطلق من مبدأين أساسيين: العقل والإيمان، العقل لأنه كان من الذين اطلعوا على الثقافة اليونانية، وما تضمنته من فلسفة وفكر وتأثره بهما تأثراً كبيراً؛ أما الإيمان فلأنه كان لاهوتياً ورجلاً من رجال الكنيسة، فعمل على تطويع أفكاره لخدمتها.

أما تصنيفه للعلامة، فكان يستند على طابع لاهوتي عقائدي قائم على أن الوجود اللاهوتي سابق في الوجود على السلوك الإنساني، معتبراً اللغة دليلاً على وجود الله، فلجأ إلى العقل واستخدمه كمنهج إيماني قائم على مفهوم واسع هو الحكمة التي مفادها التأمل في هذا الكون وما فيه من علامات للوصول إلى معرفة الله، ومن ثم الإيمان به، وهذا ما أكده منهجه الإيماني الذي كان القاعدة التي انطلق منها في كل فلسفته (آمن كي تعُقل، وتعقَّل كي تؤمن) فجعل من أمور الإيمان طريقاً للفهم والمعرفة، كما جعل العقل لا ينفصل عن الإيمان، بمعنى أن معرفة الله ممكنة عندما نتأمل مخلوقاته.

وعليه، فإن مفهوم العلامة كان يستمد فاعليته من طابع إيماني لاهوتي بحت، فالمؤمن لا يمكنه أن يصل إلى معرفة الله معرفة أكيدة إلا عن طريق خلقه " فالموجودات علامات للخالق بمعنى أنها آيات له. أنظر إلى الشمس، وإلى هذا النور الذي يغمر كل شيء ويغطيه أمامك، وأنظر إلى القمر، وإلى باقي النجوم، وإلى الأرض والبحر وإلى الأحياء التي تولد والتي لا حصر لها، ألا يعرض الله والطبيعة هذا كله أمام الأعيان" [2] وهذا ما تحدث عنه الأكويني فيما بعد عندما تحدث عن التناغم القائم بين العقل والإيمان. فوظيفة العقل تقوم على اكتشاف الفهم، ليس اكتشافاً عشوائياً بل يقوم على الأدلة وذلك باستخراجها، وفهم عللها؛ كما أن للعقل علاقة مع الحكمة التي صرّح بها أوغسطين في كتابه تعليم المبتدئين أصول الدين المسيحي عندما قال أن:" الحكمة ليست سوى مقياس العقل، بمعنى أن العقل يتزن بها، فلا يعود يسرع إلى الإفراط من دون أن يُصاب بالضمور والتراجع عن الاكتمال"[3].

فهذا النص يحتوي على نوعين من الأدلة هما العقل والحقيقة من حيث إنهما انعكاس أو صورة للوجود الروحي. هذا الوجود الذي يحتاج إلى تأمل وإعمال للفكر من أجل الوصول إلى كُنه قدرة الخالق وتدبيره في خلقه، فالوصول إلى الحكمة يعني الوصول إلى الحقيقة، والتي" يجب أن تكون نوعاً من القياس الأسمى الذي عنه تنبثق، وإليه تعود عندما تكون كاملة" [4]. ويقصد أوغسطين بلفظة قياس" الاعتدال لا زيادة ولا نقصان" [5]. وبهذا المعنى يقودنا

[1] -ايكو، امبرتو. ***العلامة(تحليل المفهوم وتاريخه)***. (مرجع سبق ذكره)، ص.10.
[2] -حنفي، حسن. ***نصوص من الفلسفة المسيحية (أوغسطين، انسلم، الاكويني)***. (مرجع سبق ذكره)،ص.16.
[3] - أوغسطين. ***تعليم المبتدئين أصول الدين المسيحي، في الحياة السعيدة، في الكذب***. ت: يوحنا الحلو، ط1، دار المشرق، بيروت، 2007 ، ص.120.
[4] - أوغسطين. ***تعليم المبتدئين تعليم المبتدئين أصول الدين المسيحي، في الحياة السعيدة، في الكذب*** .(مصدر سبق ذكره)، ص.121.
[5] -المصدرالسابق، ص.119.

أوغسطين للجملة الشهيرة التي يذكرها بشكل متكرر في كتبه بأن" أهم ما في الحياة أن يكون كل شيء فيها بمقياس" [1]، فالاعتدال دليل وعلامة يدرك فيها المؤمن وجوده بين نظام الأشياء الأخرى التي خلقها الله مستعملا عقله، بينما الإسراف هو دليل على الحماقة والفاقة اللذين هما من "عيوب العقل" [2]ـ على حد تعبير أوغسطين ـ وعلى هذا النحو، فإن هذين اللفظين المتضادين(الاعتدال والاسراف) يبدوان وكأنهما " يعبَّران عن الوجود واللاوجود"[3]، فالاعتدال[*] مقياس العقل الذي يُستدل به على الحكمة وبالتالي الحقيقة.

أما فيما يتعلق بالشك، يعتقد أوغسطين أنّ:" الشك يقود إلى وجود المشك وحقيقة الوعي" [4]، فالشك يعني أن هناك معياراً للحقيقة والتي لإيجادها يشك الشخص. " الشك واليقين مصطلحان متلازمان" [5] أي إن الشك الذي يتحدث عنه هنا أوغسطين شك منهجي اتخذه أوغسطين طريقة في التفكير للوصول إلى الحقيقة واليقين. وفي هذا السياق يربط أوغسطين بين الرغبة والشك، فيقول إنه" بدون الرغبة القائمة في جزء الإنسان لن يكون قادراً على الإحساس، يعرف ويرتفع للتصور النهائي لله" [6] ذلك لأن أوغسطين كان يعتقد" بأن الناس يمتلكون حاسة روحية تساعدهم في معرفة الله والعالم المادي"[7] وهذه الفكرة استمدها أوغسطين من الأفلوطنية.

وفي نص آخر يقول أوغسطين" إن هذا الجمال العالمي ينكشف لذوي الحواس السليمة، ولكن لا تستطيع أن تسأله، إذ ليس لها عقل يحكم على معطيات الحواس؛ أما البشر فإنهم يستطيعون أن يسألوها كيف تصبح كمالات الله غير المنظورة منظورة للعقل بواسطة مخلوقاته" [8]. فالمتأمل في هذا النص يرى أن أوغسطين يشير إلى علامتين هما العاقل وغير العاقل، الأول يستطيع أن ينظر إلى موجودات الله ويحكم عليها؛ في حين أن الثاني يرى ولا يستطيع أن يحكم لأنه لا يملك العقل، فالإنسان لا يحس فقط بالأشياء، وإنما يمتلك معرفة عقلانية لهذه الأشياء، فالعقل هو السبيل للوصول إلى الحقيقة، وكل" اختيار عن طريق الحواس شهوة" [9]. فعن طريق العقل يمكن أن ندرك كنه الموجودات والظواهر في أعماقها، أما الحواس فقاصرة ومحدودة في وصولها للحقيقة لأنها لا ترى إلا ما هو ظاهر فيما تتأثر به النفس. أما الفكر عند أوغسطين ما هو إلا ما يمكن أن يسمى بالكم المعرفي الذي أودعه الله في نفس كل متكلم يتحقق من خلال ألفاظ معدودة كما يرى الباحث السيميائي سعيد بنكراد [*]. وفي هذا السياق يقول أوغسطين في كتاب الاعترافات:" في المسكن الخفي من فكري تقول لي الحقيقة ... ولا تحتاج إلى فم ولسان ومقاطع كلام..." [10]، فالله موجود في داخلنا وعن طريق الكلمات الخارجية نستطيع أن ندرك وجوده الداخلي.

فالكلام أداة للفكر ، لا يمكن أن نقول شيئاً دون أن نفكر بالكلمات، رغم أن الفكر سابق في الوجود على الكلمات المنطوقة أو المتخيلة، وهذا ما يوضحه النص الأوغسطيني "بأن موسى كاتباً فكَّر بكل الحقائق التي استطعنا

---

[1] - المصدر نفسه، ص.119.

[2] -المصدر نفسه، ص.117.

[3] - المصدر نفسه، ص.117.

[*] اختلف أوغسطين عن ارسطو في تحديده لمفهوم الاعتدال من حيث أن أرسطو انطلق من مبدأ أخلاقي، جاعلاً الاعتدال وسط بين الإفراط والتفريط في حين أن أوغسطين انطلق من معنى لاهوتي ـ روحي جاعلاً الاعتدال مقياس للعقل من أجل الوصول إلى الحكمة

[4] Masih, y .*Acritical History of Western philosophy(creek, Mediev and Modern)*. India .1993.p. 143.-

[5] Masih, y .*Acritical History of Western philosophy(creek, Mediev and Modern)*. Op.cit., p. 143.-

[6] Ibid, p. 143.-

[7] Ibid, p. 135.-

[8] -أوغسطين. *الاعترافات*. ت: يوحنا الحلو، ط3،دار المشرق، بيروت، 1988، ص.199.

[9] - المصدر نفسه، ص. 228بتصرف.

[*] بنكراد، سعيد. السيميائيات: النشأة والموضوع، مجلة عالم الفكر،(مرجع سبق ذكره)، ص. 14.

[10]- أوغسطين. *الاعترافات*. ت: يوحنا الحلو،(مصدر سبق ذكره)، ص.242.

أن نكتشفها في كلامه، وتصوّرها أمامه كما فكر بكل تلك التي يمكن أن نجدها فيه ولم نتوصل حتى الآن إلى اكتشافها"[1].

وفي نص آخر يذهب أوغسطين إلى أبعد من ذلك مؤكداً على أن الصوت المنطوق (اللفظ) الذي يرّن في الخارج ليس سوى صدى للصوت الروحي الذي يلمع من الداخل فيقول :" نحن نعقل الأشياء ولا نرجع في ذلك إلى كلام يطنطن من الخارج، بل إلى حقيقة حاضرة داخل النفس وما الكلمات إلا منبه لها" [2]، فالصوت الخارجي كمادة لاحق للصوت الروحي الذي هو صورة. وهنا يقترب أوغسطين مع ما جاء به عالم اللسانيات المعاصر دو سوسير، الذي اعتبر الصوت علامة لغوية:" تمثل الدوال، وقد حصر الدال في الصورة الصوتية فقط أما العناصر النفسية فهي المدلولات"[3]. وبالتالي اعتبرت " العلامة اللغوية هي شيء ذو وجهين، (قولاً) تلك الكلمة المنطوقة التي ليست فقط إصدار صوت بل بالإمكان إدراك معناها والتعرف عليها لأنها مرتبطة بكلمة العقل أو القلب" [4]. وبمعنى آخر، ما نعبّر عنه باللفظ ما هو إلا انعكاس للصوت الروحي الذي يعتري أنفسنا. فالحقيقة هي علامة ضمنية أكثر من كونها مجموعة كلمات أو صور يمكن أن تدل عليها.

يمكننا القول بأن أوغسطين انطلق من مبدأ الاتصال والترابط بين ماهو داخلي وما هو خارجي والذي يستلزم انتظام الكون. فكما سبق وأشرنا بوجود معرفة محايثة يمتلكها الله ويسرُّ بها على الإنسان في ألفاظ ثلاثة صنفها سعيد بنكراد كالتالي:

1. لفظ القلب: وهو لفظ مفكر فيه خارج أي لسان، وهو مايشبه القدرة التي يملكها الإنسان من أجل اكتساب اللغة.
2. اللفظ الداخلي: وهو اللفظ المفكر فيه من خلال لسان، وهو ما يشبه لحظة تصور العالم من خلال حدود لسانية.
3. اللفظ الخارجي: وهو اللفظ الذي ينتسب إليه الفرد اختياراً أو قدراً.

والأساس في كل هذا هو الوجود اللاهوتي السابق في الوجود على السلوك الإنساني، ومصدرها عقل متعال، ولا يقوم هذا الإنسان إلا بتصريفها في وقائع معينة"[5] .

وهكذا نجد كيف استطاع أوغسطين أن يوظِّف منهجه الإيماني العقلي في تصوراته الخاضعة لمفهوم العلامة، وهو ما يظهر من خلال ما قدمه من شواهد وعلامات دالة على وحدانية الله وجماله تلك التي تمثل صور الرحمة والحكمة والمعرفة بحيث يكون بمقدور الإنسان تأملها والإيمان بها، وبالتالي فإن رؤيته للعلامة وفق هذا الفهم كانت عبارة عن تأملات إيمانية ـ لاهوتية بحتة. وكان الهدف من وراء ذلك هو معرفة الله والإيمان به إيماناً نابعاً من رؤيتنا ومشاهدتنا لموجوداته في هذا العالم. على اعتبار أن هذا الكون ليس إلا انعكاساً للخالق وصورة له. فهذا الإتفاق في الخلق من قبل الخالق يتخذ عند أوغسطين طابعاً إشراقياً.

---

[1] - المصدر نفسه، ص.293.
[2] -حنفي، حسن. *نصوص من الفلسفة المسيحية (أوغسطين، انسلم، الاكويني)* (مرجع سبق ذكره)، ص.91.
[3] -أحمر، فيصل. *معجم السيميائيات*.(مرجع سبق ذكره)، ص.43.
[4] -ايكو،امبرتو. *السيمائية وفلسفة اللغة*.(مرجع سبق ذكره)، ص.77.
[5] - معجم السيمانية . WWW.Saidbangard.net، سعيد بنكراد. السيميانيات: النشأة والموضوع، مجلة عالم الفكر، مرجع سبق ذكره، ذكره، ص.15.

ثالثاً: خصوصية العلامة عند أوغسطين:

بالاعتماد على نصوص عدة لأوغسطين، يمكننا القول أن مفهوم العلامة يرتبط " بالوجود الواقعي للأشياء، وذلك لأن نفي الأشياء هو نفي للخالق"[1]. بمعنى، أنّ العلامات تتطابق مع بنيات موجودة في الأشياء، ومن خلال تأكيد أوغسطين على أنّ الشيء يحتوي عل الجوهر، والجوهر هو ما يحدده. إلا أنّ الصورة الكلية للشيء تتطبع بواسطة الحواس، داخل المخيلة على شكل تأثر، واستناداً إلى هذا التأثر، يستخلص العقل الشكل الكوني من خلال فعل طبيعي. وبالتالي، فإذا كان الرواقيون قد عرّفوا العلامة " باعتبارها قضية تتكون من رابط صحيح وكاشفة عن رابط سابق " [2]. فإن أوغسطين يبتعد عن هذا التعريف الذي يعطي للعلامة صفة الاستلزام [*]، وصفة الاستلزام هي قضية [**]وليست حدثاً أو تعبيراً عن حقائق، وهنا يذهب ايكو في كتابه السيميائية وفلسفة اللغة إلى القول بأن " العلامة شيء تدركه الحواس ويتخذ ـ علاوة على ذلك ـ معنى مختلفاً في الفكر" [3]، فنحن نترجم ما نحس به وما تدركه حواسنا إلى كلمات، أكان إصدار أصوات أم رسم حروف لتبليغها إلى الغير. ومن هنا فقد حدّد أوغسطين " العلامة بأنها كلمة" [4] ولكن ليست كل كلمة علامة، لأن العلامة هي ما يدل على شيء، أما الكلمة فهي مجرد اسم إن لم تدل على شيء. أي يتعين في الكلمة وجود مضمون وبالتالي فالكلمة " أضيق نطاقاً من العلامة" [5]، ولذلك يجد أوغسطين بأنه حتى" حروف الجر وأدوات التعريف والضمائر"[6] لها مدلول وعلامة لشيء ما أو لمكان أو لمدينة أو لفكرة...الخ، ومن دونها لا يمكن أن يكتمل المعن. ففي الحوار الذي دار بينه وبين ابنه حول مدلول العلامات، رفض أوغسطين رفضاً قاطعاً التعريف بالمرادف[**] وهذا ما يؤكده فيما بعد السيميائي الأمريكي المعاصر بيرس عندما "تحدث عن الكلمات واعتبرها علامات، والتي بذاتها تشكل رموزاً أو مؤشرات" [7]. غير أن الفرق يبدو جلياً بين ما ذهب إليه أوغسطين وما أكده بيرس، فبينما يرى أوغسطين أن الكلمات التي لا تتضمن مدلولاً معيناً لا يمكن أن تعتبر علامة، بل يمكن أن تكون عائقاً في طريق فهمنا وصلتنا بالله. فالكلمة هي وسيط وأداة للوصل" بين الفكر الخالص والواقع المادي" [8]؛ ويعبّر عنها باللغة، ولذلك ينبغي علينا أن ندرك حقيقة الفكرة التي تمثلها تلك الكلمات، أي يتوجب علينا أن نفصل العلامة عن الشيء كمفهوم، وهكذا فعند أوغسطين تتخذ الكلمة معنى لاهوتياً (في البدء كان الكلمة)، فإن الطبيعة لا تتكلم إلا وحياً، وفيها كل شيء رمزاً، وهذا ما أكده بول ريكور في كتابه صراع التأويلات بقوله: " بأن الترميز الطبيعي غير معطى ولا منظم إلا في ضوء الكلمة الإلهية"[9]. في حين أن الكلمة(العلامة) ترتبط عند بيرس بالمنطق، وتتألف من دال ومدلول ومرجع أي

---

[1] - ايكو، امبرتو. *العلامة(تحليل المفهوم وتاريخه)*. (مرجع سبق ذكره)، ص.226.

[2] - المرجع نفسه، ص.67.

[*] التعبير الذي يستخدمه امبريو إيكو في كتابه السيميائية وفلسفة اللغة.

[**] والقضية كما يعرفها محمد مهران في كتابه المدخل إلى المنطق الصوري هي" مجموعة من الألفاظ أو رموز يرتبط بعضها ببعض على نحو ما، أو هي من بناء الفكر كالخلية في الكائن العضوي، هي وحدته التي لا يمكن تحليلها إلى عناصر أبسط منها، مع احتفاظها بصفة الحياة، كذلك القضية لا يمكن تحليلها إلى عناصر أبسط منها مع احتفاظها بصفة فكر" (محمد مهران ،المدخل إلى المنطق الصوري، دمشق، 1982،ص.117).

[3] -ايكو، امبرتو. *السيمائية وفلسفة اللغة* .(مرجع سبق ذكره)،ص.52.

[4] -حنفي، حسن. *نصوص من الفلسفة المسيحية (أوغسطين، انسلم، الاكويني)*. ص.16.

[5] -المرجع نفسه، ص.16.

[6] - المرجع نفسه، ص57 بتصرف.

[*] فالمرادف هو ما كان مسماه واحدا وتسمياته كثيرة ويختلف عن المعنى الذي يدل عليه الشيء.

[7] -أحمر، فيصل. معجم السيميائيات،(مرجع سبق ذكره)، ص.70.

[8] -حنفي، حسن. نصوص من الفلسفة المسيحية (أوغسطين، انسلم، الاكويني)،(مرجع سبق ذكره)، ص.12.

[9] - ريكور، بول. صراع التأويلات، (مرجع سبق ذكره)، ص96.

أي موضوع(مؤول) يعود إليها، أي إن بيرس بفهمه هذا يكون قد أكمل ما كانت قد بدأته الرواقية من قبل [*]؛ لقد اتخذت العلامة عند أوغسطين شكلاً ثنائياً دالاً ومدلولاً، أي أنه حصر (الدال) في العلامة الصوتية (الكلمة) واعتبرها مفهوماً، أما(المدلول) في العلامة النفسية (الذهنية) فهو الصورة الموجودة في ذاكرتنا والمسؤولة عن العمليات الانطباعية والعلامية بين الإنسان وعالمه الخارجي. وهذا ما حاولت الرواقية تفاديه عندما جرّدت العلامة من أي وجود نفسي، واعتبرت العلامة تعبيراً عن قضايا يمكن أدراكها عقلياً" وإنما تخص إمكان وجود علامة من مقدم إلى تال تنظم كل توارد للدخان والنار"[1].

ومع أن أوغسطين قد اختلف عن الرواقية حول موضوع العلامة واعتبرها (صورة ذهنية) حالة نفسية إلا أنه تبنى النظرية الرواقية حول طبيعة الكلمة وعرّفها كما ذهبت الرواقية [**] بأنها: " ليست إلا صوتاً يطرق الأذن مفرّغة من كل معنى وخالية من كل شيء"[2] إلا إذا تضمنت معنى ودلت على شيء، فهنا تصبح علامة. لذلك يتساءل أوغسطين هل يمكن أن تسمى (الكلمة) علامة إذا لم تدل على شيء؟[3].

ومن هنا نجد أن أوغسطين أكد على قيمة الكلمة وما تحمله من معانٍ لتصبح علامة " فللكلمة معنى دلالي ومستقلة بذاتها، ولا تتوالد كمفردة من ذاتها، ولما تتناسق في منظومة دلالات، فإنها تتخلق إلى عدة معان، فتؤلف قيمة، ويتحتم وجود روابط منطقية بين المعطيات المفهومية، أو تشكيلات بنائية تتحكم في حركة الأنسياب اللغوي المتراتب داخليا عبر مساوق النص"[4] فلا قيمة للألفاظ المستعملة حتى يدرك المعنى كما رأى أوغسطين.

وما يمكن ملاحظته في تحديد العلامة عند أوغسطين، هو تأكيده على فكرة القصدية وإرادة التواصل، فقد ركز عليهما في معالجته لمسألة العلامة، مميزاً " بين حالات القصدية(الأفكار)، والتجليات الحساسة لهذه الحالات" [5]. وفي هذا السياق يقول في الاعترافات " إن المعنى المقصود كان ولا شك أسمى من سواه " [6] أي إن قصدية القول تتمثل في قولٍ يحيل إلى مواقف معينة، وكأن أوغسطين يتكلم على الطريقة السوسيرية، بأن العلامة اللغوية هي شيء ذو وجهين، حيث يقول:" إن كل ما نتحدث به نعني به شيئاً، والشيء المعني لا يخرج من فم المتحدث بل هو علامة على هذا الشيء"[7] أي إن العلامة تعنى بقضية المعنى والتواصل، وهي الحيز المتوسط بيننا وبين الوجود، فعن طريقها يمكن يمكن للإنسان أن يرى نفسه والعالم المحيط به، وهذا ما ذهب إليه إيكو بقوله:" لا نتعرف على أنفسنا إلا باعتبارنا سيميائية في حركة وأنظمة من مدلولات وعمليات تواصل والخارجة السيمائية وحدها هي التي تقول لنا من نكون وكيف أو فيم نفكر"[8].

ففي كل علامة شيئان:" الصوت والمعنى، فإن الصوت لا يدرك بالعلامة بل بضرب الصوت بالهواء، أما المعنى فيدرك برؤية الشيء المعني، الذي يتوجه الأصبع نحوه" [9]. فعندما أشير إلى شيء ما فإن هذه الإشارة تمثل

---

[*] فالرواقية قد جردت العلامة من أي طابع نفسي، فالسيمياء الرواقية مادية لكون المتيافيزيقا الرواقية كانت مادية واتخذت عندها شكل ثلاثي دال ومدلول ومرجع، (أمبرتو إيكو. السيميائية وفلسفة اللغة، (مرجع سبق ذكره)، ص.79.)

[1] - ايكو، امبرتو. السيمائية وفلسفة اللغة، (مرجع سبق ذكره)،ص. 80.

[**] إن الرواقيون من بين الفلاسفة القدماء الذين درسوا طبيعة الكلمة هم أصحاب النظرية القائلة بإن الكلمة مجرد هواء مطروق(حنفي، حسن. نصوص من الفلسفة المسيحية (أوغسطين، انسلم، الاكويني)،(مرجع سبق ذكره)،ص. 21.

[2] -المرجع نفسه، ص.20.

[3] - المرجع نفسه. ص .37.

[4] - الحافظ، منير. *الوعي اللغوي(الجمالي في فلسفة الكلام)*.ط1، دار الفرقد، دمشق،2005، ص.53.

[5] -عياشي، منذر. *العلاماتية وعلم النص*.(مرجع سبق ذكره)، ص.15.

[6] -أوغسطين. *الاعترافات*.ك 12، (مصدر سبق ذكره)، ص .293.

[7] - حنفي، حسن. *نصوص من الفلسفة المسيحية (أوغسطين، انسلم، الاكويني)*، (مرجع سبق ذكره)، ص.75.

[8] - ايكو، امبرتو. *السيمائية وفلسفة اللغة*.(مرجع سبق ذكره)، ص.16.

[9] - حنفي، حسن. *نصوص من الفلسفة المسيحية (أوغسطين، انسلم، الاكويني)* .(مرجع سبق ذكره)، ص.88.

علاقة قصدية أي شيء واقعي أمامي، وتكون أداة للتواصل بيني وبين هذا الشيء المعني. وفي هذا الصدد يؤكد أوغسطين:" إذا سألنا أحداً عن الأشياء التي أدركتها حواسنا قبل ذلك لا عن الأشياء التي تقع تحت حواسنا فلن يشير كلامنا إلى الأشياء نفسها بل إلى الصورة الذهنية التي طبعتها والتي حفظتها الذاكرة"[1]، أي يمكن للعلامة أيضاً أن تكون تكون انطباعية بمعنى أنها تنشأ عن عملية جمع بين حدثين أكدتهما التجربة السابقة. ومن هنا فقد رأى أحد الباحثين المعاصرين في السيمياء أن حداثة أوغسطين" تبدو في تأكيده على إطار الاتصال والتواصل والتوصيل عند معالجته مفهوم العلامة "[2]. فأوغسطين وعلى الرغم من أن ما يفصله عن السيميائين المعاصرين يزيد عن خمسة عشر قرناً، فقد فقد أكد على جنس الكلمات وطبيعتها وقيمتها، وأبرز سيمياء التواصل وأكد على القصدية (قصدية القول) التي تعتبر من أبرز شروط سيمياء التواصل المعاصر. بمعنى أنه" يجب أن يتوفر القصد في التبليغ لدى المتكلم، وأن يعترف متلقي الرسالة بهذا القصد"[3] فالعلامة ذلك لكون العلامة عند فلاسفة سيمياء التواصل تتكون "من ثلاثة عناصر: الدال والمدلول والوظيفة القصدية" [4] وهذا بالضبط ما كان أوغسطين قد أرسى مبادئه عندما أكد على فعل القصد من وراء الشيء المعني والذي أخذه فيما بعد هوسرل "وطوّره في كتابه البحوث المنطقية نظرية عامة للقصدية وهي مصممة بوصفها علامة إحالة"[5].

رابعاً: أنواع العلامة عند أوغسطين:

يميز أوغسطين بين نوعين من العلامات" العلامات الطبيعية والعلامات التواضعية" [6] وبهذا التمييز يكون قد تحدث عن كل أنواع العلامات، فالطبيعية هي ما تحدث في الطبيعة تلقائياً، ونحن من نقوم بتأويلها كأغراض أو قرائن(مثل الغيوم التي تعلن قرب هطول المطر)، وتتخذ صفة تعبيرية لأنها تتحول إلى أغراض تحدثنا عن تفاعلات نفسية، للتواصل بين الإنسان والعلامات التي تنتجها الطبيعة؛ في حين أن التواضعية أو ما يسميها أوغسطين بالعرفية (مأخوذة من قانون أو عرف) فتعتبر علامة أسسها البشر للتواصل والتفاهم بين الإنسان وعالمه الاجتماعي مثلاً(إشارة الصليب) التي تدل على المسيحية، وهي هنا تأخذ طابعاً اجتماعياً، وتشتمل على علاقة الصورة والإشارة واللفظ. فالعلامة التواضعية بهذا المعنى يمكن أن تكون إشارة. ورأى أوغسطين أن الإشارة قد ترادف العلامة. وفي هذا الصدد يقول: "لا أرى شيئاً يمكن الإشارة إليه دون علامة "[7].وهذا ما رفضه فيما بعد برغسون عندما فرّق بين العلامة والإشارة والإشارة من حيث أن الأولى تنتقل من موضوع إلى آخر، أي إنها متحركة بمعنى أنها "لا تمتلك معنى ثابتاً ولا تمثل معنى ثابتاً. ولكنها تمتلك قيمة تتعارض مع قيم أخرى" [8]. وبما أن العلامة عند أوغسطين هي الرابط بين الدال والمدلول فلا توجد أيَّة " علامة لا تملك أي مدلول، كما أننا لا نصدر علامات من دون أن نعني بها شيئاً" [9] فعند أوغسطين لا يوجد فرق بين المفهوم المجرد (كالخير والشر مثلاً) وبين صورته الذهنية(هناك تصور قبلي لهذا المفهوم وإدراك لما يمثله) ومن هنا فقد يفرق أوغسطين بين الفعل الذي يقوم به الإنسان وبين ما يشير إليه أي (معناه).

---

[1] - **المرجع نفسه.ص.92.**
[2] - **أحمر، فيصل. *معجم السيميائيات*.(مرجع سبق ذكره)، ص.24.**
[3] - **المرجع نفسه،ص.86.**
[4] - **المرجع نفسه،ص.86.**
[5] **-عياشي، منذر. *العلاماتية وعلم النص*.(مرجع سبق ذكره)، ص.16.**
[6] - **أحمر، فيصل. *معجم السيميائيات*.(مرجع سبق ذكره)، ص.24.**
[7] - **حنفي، حسن. *نصوص من الفلسفة المسيحية (أوغسطين، انسلم، الاكويني)*.(مرجع سبق ذكره)، ص.43.**
[8] **-ريكور، بول. *صراع التأويلات* .(مرجع سبق ذكره)، ص.105.**
[9] - **إيكو، امبرتو. *السيمائية وفلسفة اللغة* . (مرجع سبق ذكره)، ص.86.**

ففي محاورة المعلم يحلّل أوغسطين فعل المشي متسائلاً عن معناه، وعن مدلول الفعل وهل يمكن التعبير عنه من دون كلام أو ألفاظ فيستنتج أن هذا الفعل يؤول استناداً إلى تجارب سابقة علمتنا قراءة هذه الأحداث باعتبارها عناصر تكشف عن شيء ما، وهذا ما أسماه فيما بعد ايكو بالعلامة الطقسية، فمادية فعل مشى مع الحركة مع السرعة هي جزء من المضمون المتمثل في ترابط بعض الصور وهي علامات للنظر. وهنا نستنتج أن الصورة أيضاً هي نوع من العلامات التواضعية عند أوغسطين.

ففي التمثيل يمكن أن تفسر العلامة بواسطة علامة أخرى، وهذا ما أسماه بيرس ودي سوسير فيما بعد العلامة الاستبدالية؛ أي العلامة التي تحل محل علامة أخرى، بشرط أن تماثلها، بهذا الصدد يقول أوغسطين:" هناك علامات على علامات، أي إن هناك علامة من الدرجة الثانية، فالكلمة علامة على الاسم، والاسم علامة على مسماه وبذلك تخلق اللغة من داخلها عالماً من الرموز يحجب الأشياء نفسها ويحول دون الوصول إليها والكشف عنها" [1]، فوظائف اللسان تتيح مجالاً أوسع في عملية التواصل مما يتيح المجال للإجراء الاستعاري داخل اللغة نفسها والذي أسماه ريكور فيما بعد " المعنى المضاعف"[2]؛ أي المعنى المتعالي " الذي يعطي معنى عن طريق معنى. ذلك لأن فيه فيه ثمة معنى أولياً، وحرفياً، واجتماعياً، ومادياً في الغالب، يحيل إلى معنى مجازي، وروحي، ووجودي في الغالب، وانطولوجي"[3].

فعليه نلاحظ أن العلامة عند أوغسطين اتخذت صفة الماصدق، من حيث النظر إلى المفهوم على أنه فكرة مجردة تمثل الخصائص الأساسية للشيء الذي تمثله، والماصدق هو حقيقة الشيء الذي انتزع منه المفهوم، على اعتبار العلامة عبارة عن صورة ذهنية لكل ما نتلفظ به، فهي شيء يشار به إلى أشياء، أو حالات في الكون، نحاول من خلالها معرفة أي شيء من الأشياء ترجع اليه تلك الكلمات. وبالتالي، جعل المعنى مسند إلى اللفظ. هنا نجد أن أوغسطين قد أقحم دلالة اللفظ ضمن سياقات مختلفة بمعنى أن اللفظ الذي نطلقه على الأشياء يمثل علامة طبيعية، أما نتائجها التداولية تظهر في سياقات مختلفة بصفة تواضعية، خاصة وأن الألفاظ ليست واحدة عند جميع الأمم، وبذلك فإن " الألفاظ والحروف توضع وتنشأ عن طريق التواضع" [4]. وهذا ما ذهب إليه أرسطو وأكده امبرتو ايكو في كتابه السيميائية وفلسفة اللغة.

وهكذا نجد أن أوغسطين قد تنبه إلى الدور الذي تلعبه العلامة كونها حاملة وظيفة دلالية الهدف منها التمييز بين الأشياء حتى يحصل التفاهم بين الناس عامة. إضافة إلى ذلك، هذا التمييز أتاح لأوغسطين أن يفرَّق بين التمثيل والمعنى موضحاً خصوصية علامة المعنى الكامن في كونها لا تستطيع أن تكون بنفسها علامة على الإطلاق، بينما الشيء يستطيع أن يمثل نفسه بنفسه، وفي هذا الصدد يقول أوغسطين: " إن كل ما نتحدث عنه نعني به شيئاً، والشيء المعني لا يخرج من فم المتحدث، بل هو علامة على هذا الشيء" [5] لذلك يرى أنَّه يجب الانتباه مباشرة إلى الأشياء المعنية لا إلى علاماتها من غير حاجة إلى أن تكون شيئاً مرئياً تدركه الحواس لأني أملك صورة ذهنية عنه ولا يحتاج سوى أن نعبّر عنه بطريقتين باللفظ أولاً كما أكد إيكو قائلاً:" في اللحظة التي تتخذ فيها صورة السلوك السيميائي شكلاً يتبادله الأشخاص وقابلاً للملاحظة نكون أمام لغة، ولقد تصور البعض أن هذه اللغة يجب أن تكون في المقام الأول

[1] - **حنفي، حسن. *نصوص من الفلسفة المسيحية (أوغسطين، انسلم، الاكويني).* (مرجع سبق ذكره)، ص.19.**
[2] - **ريكور، بول. *صراع التأويلات.* (مرجع سبق ذكره)، ص.109.**
[3] - **المرجع نفسه، ص.60.**
[4] - **إيكو، امبرتو. *السيميائية وفلسفة اللغة.* (مرجع سبق ذكره)، ص.72.**
[5] - **حنفي، حسن. *نصوص من الفلسفة المسيحية (أوغسطين، انسلم، الاكويني).(مرجع سبق ذكره)، ص.75.***

لفظية والطابع اللفظي هو شكل الفكر، ومن المستحيل أن نفكر دون كلام" [1] وبالإيحاء والحركة (رقص أو تمثيل) والإشارة ثانياً "وعندها تتحول اللغة من نطاق القول إلى الفعل، ومن القراءة إلى الكتابة، ومن الشفهي للتحرري، ومن النطق للنظر، ومن الفهم للرؤية، ومن السمع للبصر، ومن الأذن للعين" [2]، وبهذا يكون أوغسطين قد ربط نظرية اللغة بنظرية العلامة.

ومما سبق يمكننا القول أن العلامة اللفظية وحدها غير كافية كي نعرف الأشياء أو نستدل عليها " مادام اسمها مجرد صوت إلا بعد رؤيتنا لها " [3]، وبذلك يكون أوغسطين من الرواد الذين تحدثوا عن العلامات السمعية البصرية، فالصورة تساعد على الفهم أكثر" ما دامت القلة من الناس هي التي تعرف القراءة" [4] أي إن دورها في العصر الوسيط اقتصر على" دراسة الفن الديني (أيقونات وصور) إلا أنها تطورت وأصبحت وليدة العصر الحديث(عصر التكنولوجيا المتطورة) المرتبط بالكتابة والصورة التي أفرزتها التقنية العلمية الحديثة فبدت هذه العلامة أكثر وضوحاً.

فدلالة اللفظ ودلالة الإشارة ودلالة الصورة هي دلالات عرفية تواضعية. و تصنيف أوغسطين للعلامة إلى نوعين(الطبيعية والتواضعية) دفعه إلى التمييز أيضاً بين وظيفة العلامة عند الإنسان والحيوان مؤكداً أن " وظيفة العلامات عند الإنسان تختلف عنها عند الحيوان" [5]. إذ على الرغم من اشتراك الحيوان بالذاكرة مع الإنسان إلا أن الأخير يستخدم اللفظ والكلام كعلامة للتواصل مع العالم الخارجي في حين أن " الحيوانات عن طريق الأصوات التي تصدرها تكشف عن تفاعلاتها الباطنية" [6]. فالتواصل الإنساني يعبّر عن وعي لغوي وفعل قصدي، يساهم الكلام والقول في الكشف عنه والكلام يولد التفكير، في حين أن الاستجابة عند الحيوان هي بمثابة رد فعل محسوس ولا يبعث على التفكير أي ما يمكن أن يسمى " تخاطبات غريزية" [7] والتي بالاعتماد عليها سعى معهد بافلوف للبرهنة على سلوك سيميائي، محاولاً الكشف عن دلالاتها، مبتكراً نظاماً للعلامات من خلال منظور سلوكي يحدد العلامة بوصفها مثيراً؛ فالكلب كان إذا أراد الحصول على طعام يطلق العنان للعابه إلى أن يقوم عالم النفس بدق الجرس ويعطيه لقمة؛ فهذا الارتباط بين المثير والاستجابة له دلالته وعلاماته.

من خلال ماسبق، نرى أن ما جاء به أوغسطين في تقسيمه للعلامات كان متأثراً بالتقسيم الأرسطي، فمن المعروف أن أرسطو كان قد قسمّ العلامة إلى قسمين جاعلاً من العلامة العقلية والطبيعية دلالة واحدة سماها الطبيعية، بالإضافة إلى الدلالة الوضعية. ولكن الجديد الذي أضافه أوغسطين هو تطويره لمفهوم العلامة التواضعية وإبراز دورها في التواصل بين الإنسان وعالمه الخارجي من جهة، وبين الإنسان وذاته من جهة أخرى. وهذا الجديد وظّفه في خدمة اللاهوت المسيحي، فالعلامة عند أوغسطين تحمل الكثير من التأملات الفكرية والعقلية والملاحظات المستمدة من الفكر اللاهوتي، فهي بمثابة دعوة إلى التأمل في هذا الكون، والذي يحمل وفقاً لأوغسطين الكثير من العلامات التي تستحق التأمل من أجل الوصول إلى الخالق وعظمته وقدرته التي تتجلى لنا في دقة انتظام هذا الكون ونظامه.

---

[1] -إيكو، امبرتو. *العلامة(تحليل المفهوم وتاريخه)*. (مرجع سبق ذكره)، ص.205.
[2] - حنفي، حسن. *نصوص من الفلسفة المسيحية (أوغسطين، انسلم، الاكويني)*. (مرجع سبق ذكره)، ص.16.
[3] - المرجع نفسه، ص.90.
[4] - توسان، برنار. *ماهي السيميولوجيا*. (مرجع سبق ذكره)، ص.30.
[5] -عياشي، منذر. *العلاماتية وعلم النص*. (مرجع سبق ذكره)، ص.14.
[6] - ايكو، امبرتو. *السيميائية وفلسفة اللغة*. (مرجع سبق ذكره)، ص.72.
[7] -الحافظ، منير. *الوعي اللغوي (الجمالي في فلسفة الكلام)*. (مرجع سبق ذكره)، ص.32.

الاستنتاجات والتوصيات:

من كل ما سبق عرضه يمكننا القول أن الملامح السيميائية في النص الأوغسطيني بدت لنا واضحة من خلال تناوله العلامة باعتبارها وسيلة لفهم الكون والموجودات لا غاية، حيث تناولها أوغسطين من خلال إطارها النفعي الذرائعي مركزاً في ذلك على مفهوم الحكمة ومنهجه الإيماني الذي انطلق منه والذي يهدف من ورائهما إلى معرفة الله معرفة صحيحة. لأن اللغة دليل أوغسطين على وجود الله، ويصبح الله عنده باطناً في النفس ويظهر من خلال اللغة.

فأوغسطين عندما تكلم عن اللفظ والمعنى لم يعزلهما عن الواقع الفعلي للكلام، بل فصل الشيء المعني عن علامته وفاضل بينهما. وأكد أيضاً على فكرة القصدية عندما تحدث عن العلاقة بين المخاطب والمتلقي إلى جانب تأكيده على الرمزية الميتافيزيقية التي يسلكها الإنسان في علاقته المنظمة مع خالق متعال تتطابق مع الواقع العياني بجملة من المفاهيم المتمثلة بالقيم العليا(حق، خير، حرية، ارادة). لقد كان لدى أوغسطين وعي سيميائي مرتبط عنده بالتأويل، من دون أن يتحول هذا الوعي إلى صناعة لها مقامها الخاص داخل الفكر الأوغسطيني، فبين أن يكون لدى أوغسطين وعي سيميائي وبين أن يكون أوغسطين عالم سيميائي ولغوي ارتبطت عنده بنظرية واضحة المعالم، فارق لا يستهان به.

. المصادر والمراجع:

1. أوغسطين. *الاعترافات*. ت: يوحنا الحلو، ط3، دار المشرق، بيروت، 1988، 327ص.
2. أوغسطين. *تعليم المبتدئين أصول الدين المسيحي، في الحياة السعيدة، في الكذب*. ت: يوحنا الحلو، ط 1، دار المشرق، بيروت،2007، 185ص.
3. أوغسطين. *محاورة الذات*. ت: يوحنا الحلو، ط1، دار المشرق، بيروت، 2005، 95ص.
4. الحافظ، منير. *الوعي اللغوي الجمالي في فلسفة الكلام*. ط1، دار الفرقد، دمشق،2005، 189ص.
5. أحمر، فيصل. *معجم السيميائيات* . ط 1، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2010، 360ص.
6. إيكو، امبرتو. *السيميائية وفلسفة اللغة* . ت: أحمد الصمعي، ط 1 ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، 513ص.
7. إيكو، امبرتو. *العلامة تحليل المفهوم وتاريخه*. ت: سعيد بنكراد، ط 2، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2010، 290ص.
8. إيكو، أمبرتو. *سيميائيات الأنساق البصرية.ط 1، ت: محمد التهامي العماري، محمد أوداداد، دار الحوار، اللاذقية،2008*، 157ص.
9. برنس، جيرالد. *المصطلح السردي*. ت: عابد خزندار، ط1، 2003، 112ص.
10. بنكراد، سعيد. *السيميائيات : النشأة والموضوع*. مجلة عالم الفكر، العدد 3، المجلد 35، 2007، 313ص.
11. توسان، برنار. *ماهي السيميولوجيا* . ت: محمد نظيف، ط2، افريقيا الشرق، بيروت،2000، 112ص.
12. تشاندلر، دانيال. *اسس السيمائية* . ت: طلال وهبة، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2008، 511ص.
13. حنفي، حسن. *نصوص من الفلسفة المسيحية أوغسطين، وأنسلم، والإكويني*. القاهرة، 1967، 284ص.

14. دوسوسير، فردينان. *علم اللغة العام.* ت: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة: مالك يوسف المطلبي، دار أفاق عربية، بغداد،1985، 256ص.

15. ريكور ،بول. *صراع التأويلات دراسات هيرمينوطيقية.* ت: منذر عياشي، م: جورج زيناتي، ط 1، دار الكتاب الجديدة، 2005، 569ص.

16. زيعور. علي. *أوغسطينيوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطة* . دار إقرأ، بيروت، 1983، 332ص.

17. زيتوني، لطيف. *معجم مصطلحات نقد الرواية* .ط1، دار النهار للنشر، 2002، 235ص.

18. عياشي، منذر. *العلاماتية وعلم النص.* ط4، بيروت،2004، 192 ص.

19. MASIH,Y. *Acritical History of Western philosophy* (creek, Mediev and Modern).india1993.

20. STUMPH,SAMUALE .*Philosophy,History and problem.*New Yourk,Mcg raw-Hill,Inc,1994,p.996.

21. معجم السيميائيات موقع سعيد بنكراد WWW. Saidbegrad.net